الباب الرابع

الحضارة الإسلامية
أسسها .. خصائصها

الفصل الأول
أسس الحضارة الإسلامية

تقديم :

الحضارة هى: المستوى الفكرى، والاجتماعى، والاقتصادى، والسياسى، والروحى لمجتمع أو فرد معين، واشتقاقها من الحضر، وهم سكان المراكز العمرانية.

وانطلاقًا من هذا التعريف فإنه يصعب أن نتصور مجتمعًا من المجتمعات، أو فردًا من الأفراد يعيش بلا حضارة.

غاية ما فى الأمر أن هناك تفاوتًا بين الحضارات بسبب التفاوت فى الأسس، وفى الثمرات التى تفرزها كلُّ حضارة من هذه الحضارات، ولما كانت الحضارة الإسلامية متميِّزة فى : أسسها، وخصائصها عن الحضارة الحديثة كان لابدَّ من لفت النظر إلى ذلك، لاسيما وقد ظهر فى الأمة المسلمة مَنْ فُتِنَ بالحضارة الحديثة، وأعرض عن قصد أو غير قصد عن الحضارة الإسلامية.. وإليك:

أسس الحضارة الإسلامية :

تقوم الحضارة الإسلامية على طائفة من الأسس غاية فى القوة والمتانة، ومنها اكتسبت هذه الحضارة قوتها، ومتانتها، وأهم هذه الأسس:

١ ـ كمال الخالق ووحدانيته :

إذ المسلم صانع الحضارة يوقن أن خالقه رب العالمين موصوف بالكمال المطلق، منزَّهٌ عن كلِّ نقص، واحدٌ فى ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، له الحكم والتشريع، والطاعة والانقياد، والحساب والجزاء.

وتبعًا لذلك فإن المسلم يستمدُّ كلَّ ما يصدر عنه من حكم الله وتشريعه، مع مراقبته سبحانه على الدوام فى كلِّ زمانٍ، ومكانٍ، وعلى أىِّ حال وُجِدَ عليها، فلا يقصِّر، ولا يهمل، ولا ينقطع عن أداء رسالته، وإن كان شىء من ذلك بادر بالتوبة، والإنابة، والرجوع إلى الله.

كما أنه لا تعلُّق لهذا المسلم إلا بالله خوفًا، ورجاءً ، حبًّا وتعظيمًا، وتوقيرًا، وصبرًا، وتحمُّلا، وقبولا، ورضًا بكل ما قضى سبحانه، وقدَّر، وبالجملة يكون المسلم المستقيم السَّوىُّ.

ولقد شهد واقع المسلمين الحضارى بصحة هذا التصور : إذ لم يقبل المسلمون فى أى مرحلة من مراحل تاريخهم أن يتحاكموا لغير وحى الله المُنزل: كتابًا، وسنةً، نصًّا أو استنباطًا.

كما كانت مراقبتهم لربِّهم وتعلقهم به فى كل حال سمة بارزة عرفوا بها بين أمم وشعوب العالم، حسبنا أن التتار لما أسقطوا دولة الخلافة فى بغداد عام ٦٥٦هـ، واستولوا على بلاد الشام، وساروا إلى مصر، وفرضوا على الناس كتابهم ودستورهم المسمَّى : «الياسق» فى مواجهة كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ لم يرض المسلمون ذلك، وفضَّلوا الموت بإسلامهم على الحياة بغير إسلام، وقاوموا أولئك فى عين جالوت عام ٦٥٨هـ، وهزموهم هزيمة نكراء، وبقى الحكم لله وللرسول، وإن كان هؤلاء التتار قد أسلموا بعدُ وحسن إسلامهم، وقاموا بنشر الإسلام فى بلادهم، وحمايته بالنفس والنفيس.

٢ ـ الشورى :

إذ يأبى الإسلام الانفراد بالرأى فيما لا نصَّ فيه، ويوجب الشورى كسبيل إلى إنضاج وتصويب الآراء، والأحكام، والقرارات.

قال تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران : ٥٩].

وقال تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى : ٣٨] .

وطبَّق النبىُّ ﷺ مبدأ الشورى فى حياته فيما لم يكن فيه إلزام من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد استشار ﷺ أصحابه يوم بدر حين أفلتت تجارة قريش: أيمضى لقتال المشركين أم لا؟ واستقرَّ رأيهم فى النهاية على المضىِّ لقتال المشركين، واستجاب النبى ﷺ وكان النصر(١) .

---

(١) القصة أوردها ابن هشام فى : السيرة النبوية ١/ ٦١٤ ـ ٦١٥ نقلا عن ابن إسحاق بإسناد صحيح حيث صرح ابن إسحاق بالسماع، كما أوردها البيهقى فى: دلائل النبوة ٣/ ٣٢، وابن كثير فى: البداية والنهاية ٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣، نقلا عن ابن إسحاق، ثم عقَّب بقوله: «هكذا رواه ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ وله شواهد من وجوه كثيرة» ثم ساقها من رواية البخارى، والنسائى، وأحمد، وكذلك أوردها الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦/ ٧٣، وعقَّب بقوله: «رواه الطبرانى، وإسناده حسن»، وهو من حديث أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه .

واستشارهم يوم أُحد، ونزل على رأى أكثرهم بالخروج مع أنه كان يرى عدم الخروج[1] ، ولهذا وغيره، وصفه أبو هريرة بقوله :

« ما رأيتُ أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ »[2] .

ولمكانة الشورى من الإسلام على هذا النحو أولاها فقهاء المسلمين عناية خاصة، واهتمامًا كبيرًا، فوضعوا القواعد التى تحكمها وتحميها من الانحراف بها عن مسارها الصحيح، وطبقها أولو الأمر، لاسيما فى القضايا المصيرية كما عُرف ذلك من تاريخ الخلفاء الراشدين فَمَنْ بعدهم مِنَ الحكام، والأمراء، والولاة، والقضاة... وغيرهم.

وكانت الثمرة الطبيعية لذلك وجهًا حضاريا جديدًا للأمة مبنيا على الشعور بالواجب، والمسؤولية، ودافعًا إلى العمل، والإتقان، وموثّقًا عُرا المحبَّة بين أبنائها على كلِّ المستويات، وفى سائر المواقع، وكاشفًا لها عن الأحداث، ومجريات الأمور أولا بأول، وسبيل التعامل معها، وتوظيفها نحو الأنفع، والأفضل.

٣ ـ العدل :

إذ أوجب الله فى كتابه الأخذ بالعدل فى كلِّ شىء، ومع كلِّ الخلق.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء] .

---

(١) القصة أخرجها أحمد فى : المسند ٣/ ٣٥١، والدارمىُّ فى : السُّنن: كتاب الرؤيا: باب فى القميص، والبئر، واللبن، والعسل، والسمن، والتمر، وغير ذلك فى النوم ٢/ ١٢٩، ١٣٠ كلاهما من حديث أبى الزبير عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«رأيتُ كأنِّى فى درع حصينة، ورأيتُ بقرًا ينحر، فأوَّلتُ : أن الدرع: المدينة، وأن البقر نفر، والله خير، ولو أقمنا بالمدينة، فإذا دخلوا علينا قاتلناهم»، فقالوا: والله ما دخلتْ علينا فى الجاهلية، أفتدخل علينا فى الإسلام، قال: «فشأنكم إذًا».

وقالت الأنصار بعضها لبعض: رددنا على النبىِّ ﷺ رأيه، فجاؤوا فقالوا: يا رسول الله شأنك، فقال: «الآن، إنَّه ليس لنبىٍّ إذا لبس لأمته أن يضعه حتى يقاتل».

وأوردها الهيثمىُّ فى مجمع الزوائد: كتاب المغازى والسير: غزوة أُحد: باب فيما رآه النبى ﷺ فى المنام مما يتعلق بأُحُد ٦/ ١٠٧، وعقَّب عليه بقوله: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى : السنن : كتاب الجهاد : باب ما جاء فى المشورة ٤/ ١٨٥ ـ ١٨٦ رقم ١٧١٤ من حديث أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود، قال: لما كان يوم بدر وجىء بالأسارى، قال رسول الله ﷺ : « ما تقولون فى هؤلاء الأسارى ؟ » فذكر قصة فى هذا الحديث طويلة، ثم عقَّب بقوله: «وفى الباب عن عمر، وأبى أيوب ، وأنس، وأبى هريرة، وهذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه، ويُروى عن أبى هريرة قال: «ما رأيتُ أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ».

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص: أن النبى ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن - عز وجل - وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وما ولُّوا» (١).

وأبَى ﷺ أن يشهد فى جور أو ظلم، إذ يقول النعمان بن بشير رضي الله عنهما: تصدَّق علىَّ أبى ببعض ماله، وقالت أمِّى عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ، فانطلق أبى إلى النبىِّ ﷺ ليُشهده على صدقتى، فقال رسول الله ﷺ: «أفعلتَ هذا بولدك كلهم؟» قال: لا، قال: «اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم»، فرجع أبى فردَّ تلك الصدقة (٢).

وعلى هذا الأساس قامت الحضارة الإسلامية فوسِعَت الجميع، وطُبِّقت فى كل

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الإمارة: باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر ٢/ ٤٥٨ رقم ١٨٢٧ / ١٨، والنسائى فى: السنن: كتاب آداب القضاء: باب فضيلة الحاكم العادل فى حكمه ٨/ ٢٢١ و٢٢٢، وأحمد فى: المسند ٢/ ١٥٩، ١٦٠، ٢٠٣ كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا، واللفظ لمسلم.

(٢) الحديث أخرجه البخارىُّ فى: الصحيح: كتاب الهبة: باب الهبة للولد وباب الإشهاد فى الهبة ٦/ ٢٠٦، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الهبات: باب كراهية تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ٣/ ١٢٤١ - ١٢٤٤ رقم ١٦٢٣ / ٩ - ١٨، وأبو داود فى: السنن: كتاب البيوع والإجازات: باب فى الرجل يفضِّل بعض ولده فى النُّحَل ٣/ ٨١١ - ٨١٥ رقم ٣٥٤٢ - ٣٥٤٤، والنسائى فى: السنن: كتاب النُّحل: باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر النعمان بن بشير فى النُّحل ٦/ ٢٥٨ - ٢٦٢ [المجتبى] ٤/ ١١٥ - ١١٩ رقم ٦٤٩٩ - ٦٥١٣ / ١ - ١٥ [الكبرى]، وكتاب القضاء: باب ذكر النهى عن قبول الشهادة إلا على حق ٣/ ٤٩٣ رقم ٦٠٢٣ / ١ [الكبرى]، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الهبات: باب الرجل ينحل ولده ٢/ ٧٩٥ رقم ٢٣٧٥، ٢٣٧٦، والترمذى فى: السنن: كتاب الأحكام: باب النحل والتسوية بين الولد ٣/ ٦٤٩ - ٦٥٠ رقم ١٣٦٧ كلهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما مرفوعًا بهذا اللفظ، وبنحوه، وعقَّب الترمذى بقوله: «هذا حديث حسن صحيح، وقد روى من غير وجه عن النعمان بن بشير...»، وأخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الهبات: باب كراهية تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ٣/ ١٢٤٤ رقم ١٦٢٤، وأبو داود فى: السنن: كتاب البيوع والإجارات: باب فى الرجل يفضِّل بعض ولده فى النُّحَل ٣/ ٨١٥ رقم ٣٥٤٥ كلاهما من حديث أبى الزبير عن جابر، قال: قالتْ امرأة بشير: انحل ابنى غلامك، وأشْهِدْ لى رسول الله ﷺ ... الحديث.

أمر، فنال العبيد والموالى حقوقهم كاملة غير منقوصة، ونَعِمَ غير المسلمين فى ظل الإسلام، وفى جوار المسلمين بالأمن والأمان فى دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، ودينهم.

وحسبنا أن تنزل آيات من القرآن تتلى إلى آخر الزَّمان تُدافع عن يهودىٍّ اتُّهم بجريمة ظلمًا، وهو منها برىء، دفاعًا لا نظير له فى التاريخ.

فقد سرق «طُعْمة بن أبيرق» - وهو مسلم - درعًا من جاره، ثم خبَّأه عند يهودىٍّ، وحامت الشبهة حول «طُعْمة» فالتمست الدرع عنده، فلم تُوجد، وحلف بالله ما أخذها، وما له بها علم، وأخيرًا ظهرت الدرع عند اليهودى، ولما سُئل عنها قال: دفعها إلىَّ طُعمة، واستحفظنى إياها، وشهد له بذلك ناس من اليهود، فاهتم قوم «طُعْمة» للأمر، وأخذوا يتناجَوْنَ فيما بينهم للاتفاق على وسيلة تُبرئ صاحبهم، وتلصق التهمة باليهودى دفعًا للعار الذى لحق بهم، وسوَّلَتْ لهم أنفسهم إثارة النبىِّ ﷺ على اليهودى لاختلاف الدين، وأقسموا على براءة صاحبهم، وأن اليهودىَّ هو السارق، وكاد النَّبى ﷺ يقضى بما تراءى له، ولكن الله لم يرض ذلك، وأنزل فى ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾[1] [النساء].

٤ ـ المساواة:

إذ يذكر الله فى كتابه أنَّ الناس جميعًا فى الخَلْق سواء، يُردون إلى أصل واحد: آدم، وحواء، فيقول:

---

(١) انظر: القصة فى: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٥٢٢ ـ ٥٢٥ بتصرف كثير.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾ [النساء : ١] .

وأنَّه لا تفاضل بينهم عنده سبحانه إلا بالإيمان والعمل الصالح فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] .

وعلى هذا الأساس أقام المسلمون علاقاتهم مع أنفسهم ومع غيرهم من الناس فكانتْ هذه الصورة الحضارية التى ما زالتْ محل إعجاب وتقدير من الأعداء قبل الأصدقاء.

حسبنا مقولة أبى بكر فى اليوم الأول لتوليه الخلافة :

«إن أقواكم عندى ضعيفٌ حتى آخذ منه الحق، وإن أضعفكم عندى القويُّ حتى آخذ له الحق»(١) .

وحسبنا أنه لما أسلم جبلة بن الأيهم ـ وكان من ملوك آل جفنة ـ قدم إلى عمر فى خمسمائة من حاشيته، فلما كان على بُعْدِ مرحلتين من المدينة كتب إلى عمر يُعلمه بقدومه، ففرح عمر، وأمر الناس باستقباله، فلما انتهى إلى عمر رحَّب به، ولاطفه، وأدنى مجلسه، ثم خرج عمر إلى الحج، فخرج معه جبلة، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ إزارَهُ رَجُلٌ مِنْ بنى فزارة، فانحلَّ، فرفع جبلة يده فلطمه، فهشم أنفه، فاستعدى الفزاريُّ عليه عمر، فبعث إلى جبلة فأتاه، فقال: ما هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إنَّه تعمَّد حَلَّ إزارى، ولولا حُرمة الكعبة لضربتُ بين عينيه بالسيف، قال عمر: قد أقررتَ، فإما أن تُرضى الرجل، وإمَّا أن أقتص له منك، قال: وماذا تصنع بى؟ قال: آمر بهشم أنفك كما فعلتَ به، قال: كيف ذاك يا أمير المؤمنين، وهو سُوقة، وأنا مَلِك؟

قال: إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله إلا بالتقى والعافية، قال جبلة: قد ظننتُ يا أمير المؤمنين أن أكون فى الإسلام أعزُّ منى فى الجاهلية، قال عمر: دع عنك

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٣٠١ من حديث الزهرى عن أنس بن مالك بلفظ: «أمَّا بعد.. أيها الناس، فإنى قد وُليتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينونى، وإنى أسأتُ فقوِّمونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندى...» الحديث، وعقَّب عليه بقوله: «وهذا إسناد صحيح».

هذا، فإنك إن لم ترضه اقتصصتُ له منك، قال: إذن أتنصَّر، قال: إن تنصَّرْتَ ضربتُ عنقك، لأنك قد أسلمتَ ورجوعك عن الإسلام رِدَّة، وعقوبتها القتل، فلما رأى جبلةُ الصدق مِنْ عمر، قال: أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه، فخرج من الليل ولحق بهرقل وتنصَّر[1] .

٥ ـ التكافل الاجتماعى :

إذ يوجب الحقُّ تبارك وتعالى ـ التعاون والتكافل بين بنى آدم جميعًا، وبين المسلمين على وجه الخصوص ماديًا ومعنويًا فيقول:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ويقول تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة] .

ويقول ﷺ : «. . . وأشهد أن العباد كلهم إخوة. . .» [2] .

ويقول أيضًا : « مَثَلُ المؤمنين فى توادِّهم ، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى» [3] .

وعلى هذا الأساس كان هذا الوجه الحضارى للأمة المسلمة، والذى يصوره ثناء النبى ﷺ على الأشعريين، إذ يقول:

---

(١) انظر : القصة فى : العقد الفريد لابن عبد ربِّه الأندلسى ١/ ٣١٠ ـ ٣١٥ ، وقد ذكر فيها ندمه بعد ذلك على تنصُّره، وطلبه من رسول عمر الذى أرسله يدعوه إلى الإسلام: أنَّه إذا زوَّجه بنته، وجعله أميرًا من بعده رجع إلى الإسلام، فوافق عمر قائلا: «فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحكمه ـ عزَّ وجلَّ»، قال الرسول: «ثم جهزنى عمر إلى قيصر، وأمرنى أن أضمن لجبلة ما اشترط به فلما قدمتُ القسطنطينية وجدت الناس منصرفين مِنْ جنازته، فعلمتُ أن الشقاء غلب عليه فى أمِّ الكتاب».

(٢) الحديث قطعة من حديث أخرجه أبو داود فى : السنن: كتاب الأدب: باب ما يقول الرجل إذا سلَّم ٥/ ١٧٤ رقم ١٥٠٨ من حديث زيد بن أرقم أن النبىَّ ﷺ كان يقول فى دُبر صلاته: «اللهم ربنا وربَّ كلِّ شىء أنا شهيد أنك أنت الرب. . .» حتى قال: «أنا شهيدٌ أن العباد كلهم إخوة. . .» الحديث، وفيه داود الطفاوى وهو كما قال ابن حجر فى تقريب التهذيب ١/ ٢٣١ رقم ٩: «ليِّن الحديث» يعنى لا يقبل إلا بمتابعة.

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب البرِّ والصلة والآداب: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، وتعاضدهم ٤/ ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠ رقم ٢٥٨٦ / ٦٦ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه بهذا اللفظ، ومثله البخارى فى: الصحيح : كتاب الأدب: باب رحمة الناس والبهائم ٨ / ١١ ـ ١٢ من حديث النعمان أيضًا.

« إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسويَّة، فهم مِنى، وأنا منهم » (١) .

ويُثنى ربُّ العزَّة سبحانه على الأنصار بِحُسن استقبالهم للمهاجرين، وإيثارهم على أنفسهم، بقوله:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [٩]﴾ [الحشر] .

ويصوِّره كذلك نظام الوقف الخيرى الذى كفل حياة طيبة مادية ومعنوية لليتامى، والفقراء، والمعوَّقين، والمرضى، والسُّجناء، والأسرى، والخدم، والعبيد، بل إن المصابين بالأمراض النفسية، والعقلية كان لهم نصيبٌ من هذه الكفالة فى أقسام تخصهم ضمن البيمارستانات الكبرى، وربما أُنشئتْ لهم مصحات خاصَّة بهم، وقد خُصص لكل واحد منهم مُرافق يأخذه باللين، والرفق، يصحبه فى الحدائق بين الخضرة، والزهور، ويُسمعه ترتيلا هادئًا من آى الذكر الحكيم، تطمئن به القلوب، وتهدأ النفوس.

وكذلك الغرباء، وأبناء السبيل، وكبار السنِّ، والقواعد، والحيوانات، كل هؤلاء نالوا نصيبًا كبيرًا من الكفالة الاجتماعية فى المجتمع الإسلامى(٢) .

* * *

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الشركة: باب الشركة فى الطعام... ٣/ ١٨١، ومسلم فى : الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل الأشعريين ﷺ ٤/ ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ رقم ٢٥٠٠ / ١٦٧ كلاهما من حديث أبى موسى الأشعرى بهذا اللفظ.

(٢) انظر تفصيل ذلك فى : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية للدكتور: سعيد عبدالفتاح عاشور، وزميليه ص ٢٧٩ ـ ٣٠٠ منشورات ذات السلاسل ـ الكويت، الثانية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

الفصل الثانى

خصائص الحضارة الإسلامية

للحضارة الإسلامية خصائص انفردتْ بها، ومزايا ليست توجد فى غيرها من الحضارات، وأهم هذه الخصائص والمزايا :

١ ـ عصمة المصدر :

ذلك أن مصدرها كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ وهما معصومان من الخطأ والتناقض، ومحفوظان من أىٍّ تغيير أو تبديل أو تحريف لأنهما من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الموصوف بالكمال المطلق المنزَّه عن كلِّ نقصٍ.

قال تعالى : ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود] .

وقال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر] .

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال : « كنتُ أكتبُ كلَّ شىءٍ أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فَنَهتنى قريش، وقالوا: أتكتب كلَّ شىء تسمعه، ورسول الله ﷺ بَشَرٌ يتكلم فى الغضب، والرضا، فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بإصبعه إلى فِيهِ ، فقال:

«اُكتب، فو الذى نفسى بيده، ما يخرج منه إلاَّ الحقّ» (١) .

ولاشك أن عصمة مصدر الحضارة الإسلامية على النحو المذكور هو الذى ضمن استمرار هذه الحضارة، وجعلها فوق الحضارات.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن: كتاب العلم : باب فى كتاب العلم ٢/ ٣٨٦، والدارمىُّ فى: السنن: المقدمة: باب مَنْ رخص فى كتابة العلم ١/ ١٢٥ ، وأحمد فى : المسند ١٠/ ١٥ ـ ١٦، ١١ / ٥٦ ، ١٣٩ ـ ١٤٠، ١٩١ أرقام ٦٥١٠، ٦٨٢٠، ٦٩٣٠، ٧٠٢٠ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر، وقال عنه : «إسناده صحيح».

٢ ـ تحرير الإنسان من العبودية لغير الله :

ذلك أن المنهج الذى تُبنى عليه الحضارة الإسلامية خالٍ تمامًا من عبوية الإنسان لأىٍّ مخلوق مثله، ومبنى على العبودية التامَّة لله وحده، الأمر الذى يجعل الإنسان صانع هذه الحضارة يحيا آمنًا من داخله عزيزًا حرًّا سعيدًا.

قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٧٦)﴾ [النحل] .

وقال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر] .

ويوجه سبحانه النداء إلى أهل الكتاب كافَّة أن يتحرروا من العبودية لغير الله بأن يفردوه وحده بالعبادة، والخضوع، فيقول:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٦٤)﴾

[آل عمران]

ولقد كان النبى ﷺ يختم كتبه التى أرسلها إلى ملوك وأمراء النَّصارى المجاورين بهذه الآية تأكيدًا على هذه الخاصية للحضارة الإسلامية.

٣ ـ عظمة الجزاء وعدالته :

ذلك أن الجزاء فى هذه الحضارة عظيم ومرتبط بالعمل، فإذا كان العمل خالصًا لله غير مخالف لشرعه كانت ثمرته الحياة الطيبة فى الدنيا، والنجاة من النار والفوز بجنَّة عرضها السموات والأرض، ورؤية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى الآخرة، وإذا كان العمل لغير الله بالمرَّة، أو مع الشرك، أو كان مخالفًا لشرعه، كانت ثمرته العذاب فى الدنيا، والعقاب بالنَّار فى الآخرة وبئس القرار، ولا ينفع المال، أو الحسب، أو الولد، أو العشيرة، أو الصديق والصاحب.. أو غير ذلك.

قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾ [النحل] .

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾ [طـه] .

وقال تعالى : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾ [النساء] .

وقال تعالى : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾ [المؤمنون] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيَّة، وإنما لكلِّ لكل امرئ ما نَوى، فَمَنْ كانت هجرتُه إلى الله ورسوله، فَهجرتُه إلى الله ورسوله، وَمَنْ كانتْ هجرتُه إلى دُنيا يُصيبها، أو امرأة يتزوَّجُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه» (١) .

٤ ـ الشمول والتوازن :

ذلك أن المنهاج الذى استَمدتْ منه الحضارة الإسلامية مادَّتها يتسم بالشمول لكلِّ شيء، فهو يتناول كل مكوِّنات الإنسان المادية، والمعنوية، ويغطى كلَّ الأحوال التى يعيشها الإنسان فردًا أو جماعة، سلمًا أو حربًا، صحةً أو مرضًا، سفرًا أو حضرًا، مع الأصدقاء، ومع الأعداء، فى أى زمان، وفى أى مكان وُجِدَ فيهما الإنسان بعيدًا عن الإفراط والتفريط، الأمر الذى يحمل على الثقة بهذا المنهاج، وإعطاء الولاء له كاملا، والبراءة من كل ما يعارضه ويناقضه.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [المائدة]

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب بدء الوحى: باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ١/١، وكتاب العتق: باب الخطأ والنسيان فى العتاقة، والطلاق، ونحوه ٣/ ١٩١، ومسلم فى الصحيح : كتاب الإمارة : باب قوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيَّة» ٢/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

وفى الإنفاق كذلك يدعو إلى التوسط والاعتدال، فيقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

وفى الخوف تكون الصلاة على كيفية وهيئة بعينها، تختلف عنها فى الأمن، قال تعالى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة].

وفى التعامل مع الدنيا والآخرة يكون التوسط والاعتدال كذلك، قال تعالى:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

٥ ـ الثبات والمرونة:

ذلك أن الأصول العقدية، والأخلاقية، والتشريعية فى المنهج الذى تستمد منه الحضارة الإسلامية مادتها ثابتة لا تتغير بتغيُّر الزمان أو المكان أو الحال التى يعيشها الإنسان، بينما الأسلوب والوسيلة يتغيَّران بتغيُّر الحال والواقع، والزَّمان، والمكان.

فمثلا مطلوب من الإنسان التحرك فى الأرض لأداء واجبه، وذلك أصل ثابت لا يتغير بتغيُّر زمان أو مكان، أمَّا وسيلة هذه الحركة فمتروكة لظروف وإمكانات هذا الإنسان مِنْ مشيٍ على قدميه، أو ركوب لدابَّة من الدوابِّ، فرس أو راحلة، أو بعيرٍ، أو آلةٍ حديثة: سيارة، أو سفينة، أو طائرة، أو قطار، أو غير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]

والشورى من الأصول الثابتة فى هذا المنهج.

قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

فلا يجوز لصاحب سلطان، أو لمجتمع من المجتمعات أن يلغى الشورى سياسية كانت أم اجتماعية.

أمَّا شكل هذه الشورى فمرن يتغير بتغيُّر الواقع، والزمان، والمكان، والأعراف، والعادات، وهلم جرًّا.

يقول الحافظ ابن القيم :

« الأحكام نوعان : نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة، ولا الأمكنة، ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرَّمات، والحدود المقدرة بالشرائع على الجرائم.. ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير، ولا اجتهاد يخالف ما وُضع عليه، والنوع الثانى: ما يتغيَّر بحسب اقتضاء المصلحة له زمانًا ومكانًا، وحالا كمقادير التعزيرات، وأجناسها، وصفاتها، فإنَّ الشارع ينوِّع فيها حسب مصلحة... »[1] .

وضرب أمثلة كثيرة لذلك مِنْ هديه ﷺ ، وهدى الخلفاء الراشدين من بعده، ثم قال:

«وهذا باب واسع اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التى لا تتغيَّر بالتعزيرات التابعة للمصالح وجودًا، وعدمًا »[2] .

ومثل هذا الثبات مع هذه المرونة أعطى الحضارة الإسلامية فرصة النهوض، والنمو، والتقدم مع الالتزام بالأصول التى يقوم عليها المنهج الإسلامى.

٦ ـ تنوع مصادر الإلزام مع الفاعلية :

وتتنوع مصادر الإلزام التى تحمل على التنفيذ والتطبيق مع فاعلية هذه المصادر، إذ هناك الفطرة التى فطر الله النَّاس عليها، أو ما يُسمَّى بالوازع النفسى الداخلى.

عن النواس بن سمعان قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم، فقال:

«البرُّ حُسن الخلق، والإثم ما حاك فى صدرك، وكرهتَ أن يطَّلع عليه الناس»[3].

وهناك العقل الذى إذا كان سليمًا راشدًا لم يتأثر بالبيئة، والأهواء، فإنه يقضى بحسن الحسن، وقبح القبيح، ويحمل على الالتزام بالحَسَن، واجتناب القبيح.

وهناك السلطان الذى جعله الله حارسًا دُنيا الناس بدينه سبحانه وتعالى، وقد قيل: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[4] .

(١ ، ٢) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/ ٣٤٦، ٣٤٩، وعنه نقل الدكتور يوسف القرضاوى فى: الخصائص العامة للإسلام ص ٢٠٠، نشر : وهبة ـ القاهرة، الثانية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب: باب تفسير البرِّ والإثم ٤/ ١٩٨٠ رقم ٢٥٥٣ / ١٤ ـ ١٥، والترمذى فى: السنن: كتاب الزهد: ٩/ ٢٣٤ [تحفة الأحوذى لابن العربى]، والدارمىُّ فى : السنن: كتاب الرقاق ٢/ ٣٢٢، وأحمد فى: المسند ٤/ ١٨٢.

(٤) الأثر أورده علاء الدين المتقى الهندى فى: كنز العمال: كتاب الخلافة مع الإمارة: الباب الثانى فى الإمارة وتوابعها من قسم الأفعال: ترغيب الإمارة ٥/ ٧٥١ رقم ١٤٢٨٤ ، وعزاه إلى الخطيب عن عثمان، وعمر موقوفًا به.

وهناك المجتمع الذى إذا كان صالحًا مستقيمًا، فإنه لا يسكت عن معروف مضيَّع، أو منكر قائم انطلاقًا من قوله سبحانه :

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾

[التوبة: ٧٧]

وهناك الوازع الأكبر الذى لا نظير له فى أىٍّ منهج من مناهج أهل الأرض، ألا وهو مراقبة الله فى السِّرِّ والعَلَنِ، فى الدخول والخروج، فى كلِّ الظروف، وفى سائر الأوقات، إذ هو سبحانه يسمع، ويرى، ويطَّلع على كل شىء، وملائكته يكتبون، وجنده فى الأرض وفى السماء يشهدون، ويوم القيامة سيُنطِق الجوارح بكلِّ ما عملَتْ، فأين الهروب؟ وكيف الهروب بعد ذلك؟

يقول تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فُصِّلت] .

ويقول تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق] .

ويقول تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

[الانفطار]

وهكذا تتنوع مصادر الإلزام مع الفاعلية فى المنهاج الذى تُبنى عليه الحضارة الإسلامية، الأمر الذى يجعلها حضارة أمينة لا مجال فيها لغشٍّ أو خيانة.

٧ ـ الصفح والتسامح :

ذلك أنَّ الله أمر بالعفو والصفح فى أكثر من موضع فى كتابه.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن].

وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر] .

وقال تعالى : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف] .

بل إن هذه الروح الطيبة تعدَّت المسلمين إلى أهل الذمة.

قال تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة] .

وتبعًا لذلك كان الحبُّ والترابط بين أبناء المجتمع، وكان الاعتراف لذوى الفضل بفضلهم، إذ رأينا علماء المسلمين يمجِّدون كل مَنْ وضع لبنة فى صرح الحضارة الإسلامية، وإن كان غير مسلم كما يشهد بذلك كتاب: «طبقات الأطباء لابن أبى أُصَيْبعة»، وثنائه على أطباء غير مسلمين، لما لهم مِنْ جُهدٍ فى خدمة الحضارة الإسلامية.

٨ ـ احترام الحضارات الأخرى، مع اقتباس النافع المفيد:

إذ دعا الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ إلى احترام حضارات الأمم الأخرى عندما قال: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وعندما قال: ﴿لكم دينكم ولى دين ۝٦﴾ [الكافرون].

وعندما قال النبىُّ ﷺ لأمرائه وقُوَّادِه فى الحروب يوم مُؤتة:

«لا تقتُلُنَّ امرأةً، ولا صغيرًا ضَرَعًا، ولا كبيرًا فانيًا، ولا تَقربُنَّ نَخلا، ولا تقطعُنَّ شجرًا، ولا تَهدِمُنَّ بيتًا» (١).

فهذا يفسِّر العموم الوارد فى الآيتين قبل.

وقد وعى المسلمون ذلك، فتعاملوا مع حضارات البلاد المفتوحة بالاحترام وعدم العدوان عليها، أو الإهانة لها، مع اقتباس النافع المفيد منها، وترك ما عداه انطلاقًا من الحديث:

«الكلمة الحكمة ضالَّة المؤمن، حيث وجدها فهو أحقُّ بها» (٢).

فمثلا اقتبسوا نظام الدواوين من الفرس، وأخذوا بنظام الشرطة فى حماية الحكام والأمراء، والقوَّاد من العجم، وكذلك نظام خاتم يختم به على الكتب، ونحو ذلك كثير.

* * *

(١) الخبر أورده الواقدى فى: المغازى: باب غزوة مؤتة ٢/ ٧٥٨ من رواية خالد بن يزيد بلفظ: خرج رسول الله ﷺ مشيِّعًا لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف، ووقفوا حوله، فقال: «اغزوا باسم الله...» الخبر.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب العلم: باب ما جاء فى فضل الفقه على العبادة ٥/ ٤٩ رقم ٢٦٨٧ من حديث أبى هريرة مرفوعًا به، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المدنى المخزومى ـ أحد رواة الحديث. . يضعَّف من قبل حفظه»، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب الحكمة ٢/ ١٣٩٥ رقم ٤١٦٩ من حديث أبى هريرة مرفوعًا بهذا اللفظ.